

الى القراء

الغرض الاول من نشر هذه السلسلة هو جعل المعلومات العامة من تاريخ وأدب وفلسفة واجتماع وغير ذلك من العلوم و الفنون سهلة قريبة فى متناول الجميع ، اذ ان العلم ليس وقفا على افراد الخاصة والمتعلمين بل هو حق مباح للناس اجمعين .

ان روح العصر تتطلب السرعةوالاقتصاد ـ الاقتصاد فى الوقتوفىالمال ـ ولا شك ان كثيرا من الناس ـ المثقفين منهم و غير المثقفين ـ يحجمون عن القراءة لان أوقاتهم لا تتسع لقراءة الكتب المطولة وجيوبهم لاتحتمل دفعأثمان الكتب الباهظة. ولذا يجد القارىء أن هذه السلسلة تمتاز بما يأتى :

(١) أننا نفرض ان الموضوع غريب عن القارىء بتاتا فنشرحه له بلغة سهلة شيقة خالية من العبارات العلمية البحتة ومغرية بالاستزادة .

(٢) ان كل رسالة تتناول موضوعا واحدا طريفا يكتبه اخصائى درس موضوعه درساً عميقا وفهمه فهما جيدا فيخرج القارىء من قراءتها وهو لايقل إحاطة بالموضوع ـ مهما كان غريبا عنه ـ عمن كانت الرسالة خلاصة دراسته وعصارة افكاره .

(٣) ان هذه الرسائل زهيدة الثمن صغيرة الحجم يمكن أن توضع فى الجيب ويستطيع القارىء أن يطالعها وهو فى طريقه الى عمله او فى أوقات فراغه .

(٤) أنها الى الثقافة النافعة سبيل صالح غير السبل المطروقة وانهااذا قرئتلاتطرح أرضا بل تضم الى مكتبة القارىء للعود اليها .

(٥) انها تستعين بالصور والخرائط لتوضح ماعساه ان يكون غامضا من المسائل .

(٦) انه فى نهاية كل رسالة يجد القارىء قائمة باسماء عدة كتب عربية وأفرنجية اذا أراد التوسع والاستزاده .

ان رياض العلوم واسعة المدى وازاهير الفنون يقصر عنها الطرف، وسنجنى الثمار ونقطف الازهار ونقدمها الحين بعد الحين لقراء هذه اللغة الكريمة فى جميع اصقاع العالم العربى .

ويسرنا ان تكون مصر مطلع هذا النور الجديد . وفقنا الله الى مانسعى فيه من خير ؟

المؤســــسون

محمد مبروك نافع — ليسانسيه المعلمين العليا فى التربية والآداب

توفيق حامد المرعشلى — دكتور فى الآداب

زكى الرشيدى — B.A. Leeds

منارة الاسكندرية

كانت الاسكندرية حاضرة مصر فى عصر البطالسة ـ بمتحفها ومكتبتها الجامعة ـ مدرسة للعالم انشأت ثقافة جديدة وخطت بالانسانية خطوات واسعة .

من اجل ذلك اتخذنا منارتها شعارا لسلسلة الثقافة العامة لتشير ابدا الى ما كانت عليه مصر من مكانة عالية فى العلم والحضارة .

سلسلة الثقافة العامة — ١

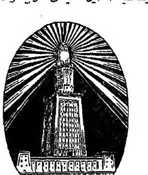
على ضفاف النيل

في عصور الفراعنة

تأليف

محمد مبروك نافع

ليسانسيه المعلمين العليا في التربية والآداب



منارة الاسكندرية

تنشرها المكتبة الاهلية الجديدة

رقم ٦٥ شارع الفجالة بمصر

الطبعة الاولى — ينـاير ســـنة ١٩٣٠

(دار الطباعة الاهلية ١٠ شارع نوبار بالقاهرة)

محتويات الكتاب

(أيها المصريون :

... أنكم أنبل الوارثين لأقدم مدنية فى الأرض ...)

سعد زغلول

مقدمة

الماضى سجل حافل بالمفاخر والاخطاء ، والأمم التى تجهل ماضيها لا تأمن العثرات فى مستقبلها ، لكنها من دراسة تاريخها تستخلص العبر من اخطائها الماضية وتستمد الوحى من مجدها التليد .

من أجل ذلك أحاول فى الصفحات التالية أن أرسم بالقلم السريع صوراً استعرض بها حوادث التاريخ المصرى القديم التى مثلت « على ضفاف النيل » في خلال سبعة آلاف من السنين .

وأنى لأرجو أن أكون قد وفقت إلى وضع حجر في بناء الثقافة العتيد .

محمد مبروك نافع

هليوبوليس فى ديسمبر سنة ١٩٢٩

— ١ —

مصر فى فجر التاريخ

فى ظلمات القرون الغابرة :

أرجع البصر الى الوراء بضع عشرات من آلاف السنين وتعال معى نجول جولة سريعة فى أنحاء العالم .

أنظر .. هاهى أمريكا النائية لاتجد للانسان فيها أثراً .

وها هى آسيا .. ماذا ترى ؟ أناس عرايا يروحون ويجيئون يبحثون عما يأكلون من أعشاب وثمار وجذور ، أو يصطادون الحيوانات ليأكلوا لحومها نيئة .

وتلك هى أوربا .. هل ترى كيف يغطى الجليد سطحها ؟ أنظر تلك المساحات الهائلة من الجليد تتحرك ببطء الى الجنوب . أنها تقصف الأشجار الضخمة وتحطم الصخور العظيمة وتكتسح أمامها الآف العالمين .

تعال معى الآن الى أفريقية ... ها هو ذا نهر النيل . أنه ينساب من الجنوب الى البحر حيث تذوب كتل الثلج الأوربية الهائلة فلا تصل الى مصر . أنه ينحت طريقه وسط الهضاب . أنه يلقى رواسبه على الجانبين . أنظر الى هذه الهضاب التى تحف الوادى . هل ترى سكانها كيف يصطادون الحيوانات ويجرون وراءها في كل ناحية . ها هم قد وصلوا الى الوادى وهبطوا اليه . لقد وجدوا في الوادى حيوانات صيد بديعة . لقد استقروا فى الوادى وآثروا البقاء فيه . أن ورودهم يزداد على مر الأعوام .

أتدرى من هم أولئك الصيادون الذين انتقلوا من الهضاب ؟ انهم أجدادنا معاشر المصريين . أما حكايتهم فسنرويها لك في الصفحات التالية في خلال سبعة الآلاف سنة الماضية ، فهى أقدم وأطول وأمجد حكاية رواها التاريخ .

فى أفـــق المدنـــية :

لما هبط أولئك الصيادون الوادى وجدوا الجو معتدلا

والتربة خصبة وشاهدوا كثيراً من الأشجار والنباتات ، فتركوا الصيد وبدءوا يستلذون الخضر ثم استطاعوا في النهاية أن يستنبتوا القمح والشعير وغيرهما من النباتات فى وقت لم يكن يعرف فيه انسان في الأرض عن الزراعة شيئاً ، واضطرتهم مهنة الزراعة التى احترفوها الى الاستعانة بالحيوانات فكانوا أول من استأنس الحيوانات في العالم .

وفى بادىء أمرهم كانوا يعيشون جماعات قليلة تعمل كل جماعة لنفسها ورأوا من المصلحة أن تشترك كل بضعة من هذه الجماعات فى عمل واحد يعود عليها بالخير كحفر قناة أو درء خطر فنشأ من ذلك أول نظام اجتماعى شهده العالم وتكون من مدن الجماعات المتقاربة أقليم ذو حكومة واحدة .

أما أزمة الأمور فى الأقاليم فكانت في أيدى رجال الكهنة وكبار الدين الملاك وكان لكل أقليم آلهة خاصة به عدا ما كان يعبده المصريون جميعا من قوى الطبيعة كالشمس والقمر والنيل.

واتخذ كل أقليم علما خاصا عليه رمز ذلك الأقليم وعرف المصريون كيف يركبون النيل وكانت سفنهم الشراعية تحمل رمز الأقليم أيضا .

وكثيراً ما كان سكان الأقاليم المتجاورة يتحاربون فيتغلب أقليم على آخر فيضمه اليه . وأسفرت نتيجة تلك الحروب عن تكوين مملكتين عظيمتين احداهما في الشمال وكان رمزها حزمة من البردى والأخرى في الجنوب وكان رمزها زهرة الزنبق .

— ٢ —

الدولة القديمة وعصر بناة الأهرام

أول مملـــكة فى العـــالم :

وهنالك في مملكة الجنوب حوالى سنة ٣٤٠٠ قبل ميلاد المسيح خطرت فكرة هائلة في رأس الجالس على العرش. زحف ذلك الملك من عاصمته طينة (على مقربة من جرجا الحالية) الى الشمال وماهي الامدة قصيرة حتى أخضع سكان الشمال فلبس التاجين ووحد الوجهين وأصبح صوته مسموعاً من جنادل أسوان الى مصاب النيل. ذلك هو « مينا » رأس أسرات الفراعنة . ومؤسس أول مملكة أشرقت عليها شمس التاريخ في وقت كان كل سكان الأرض فيه يعيشون هملا لا رابطة بينهم .

ولا تسل عما جره ذلك الاتحاد على مصر من خير فقد تقدمت العلوم والفنون في المملكة الأولى فى العالم وترقت العمارة

و كثر تشييد المقابر والهياكل وانتظمت حركةالتجارة والصناعة .

ولم تكن مثل تلك الحكومة بما فيها من موظفين وجباة تستطيع أن تستغنى عن طريقة تضبط بها ميزانية الدولة ومقادير الضرائب فاضطرتهم الحاجة الى اختراع الكتابة فكان المصريون أول قوم ورّثوا العالم تلك النعمة الكبرى التى حملها الفينيقيون بعد ذلك بآلاف السنين ونقلوها الى كل الشعوب .

ولمس المصريون منافع الوحدة الوطنية بأيديهم وكان هَمّ خلفاء «مينا» من ملوك الأسرتين الأولى والثانية هو تثبيت دعائمها والتمكين لها .

ولم يكن الناس حتّى ذلك الوقت يعرفون البناء بالحجر حتى جاء «زوسر» من ملوك الأسرة الثالثة فأسس هرم سقارة المدرج الذى يعتبر أقدم بناء من الحجر في العالم .

وكثرت الأهرام في عهد الأسرات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة . أما الغرض من بنائها فكان حفظ أجساد الموتى لأن

المصريين القدماء كانوا يؤمنون باليوم الآخر وبالبعث بعد الموت غير أنهم كانوا يعتقدون أن الأجساد اذا فنيت عذبت الأرواح وقضى عليها فكانوا لذلك يعمدون الى تحنيط أجسادهم فينقعونها فى ماء النطرون ثم يستخرجون الأحشاء والأمعاء ويحشون مكانها التوابل والعقاقير المختلفة ويصمغون الجلد عدة مرات ثم يلفونه بالأربطة ويودعون تلك الموميات (الأجساد المحنطة) بطون تلك القبور الهائلة حتى لا تصل اليها يد العبث أو الفناء .

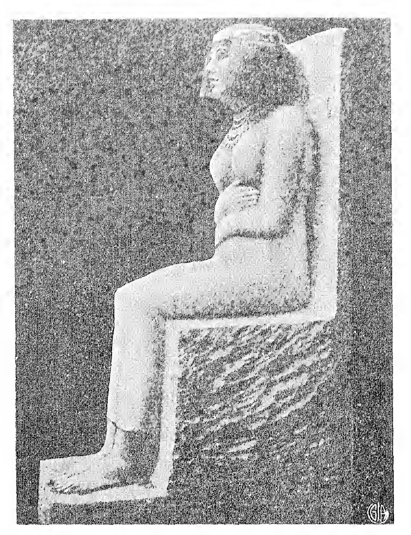
الأهـــــرام معــــجزة الــــــدهر :

هلم نحاول التغلغل وسط ضباب ثمانية وأربعين قرنا لننظر « خوفو » مؤسس الأسرة الرابعة يبنى هرم الجيزة الأكبر .

ها هو طريق طويل معبد بين المحجر وبين اثنى عشر فدانا هى قاعدة الهرم . أنظر كيف يدحرج عشرات الآلاف من العمال الحجارة المنحوتة على أساطين من الخشب . أنهم يصلون الى مكان الهرم حيث يعمل البناءون . أنظر كيف يلصق البناءون

الحجارة المصقولة بواسطة تفريغ الهواء وكيف يشرف المهندسون على العمل . ها هوذا « رع » اله الشمس ينحدر الى الأفق وهاهم العمال يغربون معه الى ثكناتهم التى أعدها لهم الفرعون ليستيقظوا عند شروق « رع » ويبدءوا من جديد خدمة خوفو الاله الأصغر . أنظر ها هم العمال يروحون الى حقولهم في مبدأ الشتاء ليزرعوا الأرض . وها هم يعودون الى العمل وقد غطى فيضان النيل الحقول . ان الهرم يعلو عاما بعد عام والعمال يهيلون حوله التراب ليدحرجوا فوقه الحجارة . لقد وصل البناءون الى القمة . أنهم الآن يطلون الهرم ببياض من المرمر المسحوق . أنهم يزيلون التراب ويطلون الهرم من أعلى الى أسفل . لقد مرت ثلاثون سنة منذ بدئ فى عمل الهرم . لقد تم بناء الهرم الآن .

ونحا « خفرع » و « منقرع » فى بناء هرميهما الأوسط والأصغر نحو خوفو . فلا تصدق ما تقوله اليونان على خوفو وخفرع ومنقرع . أنهم ينقمون عليهم أدارتهم تلك الاعمال الفنية الهائلة .



« السيدة نفرت » من اميرات القصر الملكى فى عهد الاسرة الرابعة وترى الحياة تكاد تجرى فى جميع انحاء التمثال الرائع مما يدل على ان الفنون الجميلة وصلت فى عهد بناة الاهرام الى حد لايجارى .

(عن تمثال بالمتحف المصرى)

أنهم يحسدون المصريين على حذقهم فنون البناء والهندسة والطبيعة والفلك التى استلزمتها أقامة تلك الاهرام الهائلة . أليست هي معجزة الدهر الخالدة ! ؟

بصيص من الديموقراطية :

دعك من أن الأسرة الخامسة تدهورت فى عهدها الملكية وزاد نفود حكام المقاطعات واسمع مايقوله « بتاح حتب » - أول فيلسوف فى العالم - مخاطبا الرؤساء والأمراء :

« اذا وليت أمر قوم فلا تتحكم فى أعناقهم بظلم ولا تتسع فى سلب نعمتهم فأن الخير يذهب عنك بقدر ماتذهبه عنهم ...... و لن عادلا فان العدل يضمن لك الفوز فى الحياة لأن له صولة تدوم وتبقى فى الارض ...... وأذا كنت رئيساً فعامل من هم أقل مرتبة منك برفق واعلم أن مرءوسك هو ساعدك وعضدك وأن التشدد فى معاملته يجعله يخفى عنك مايفيدك العلم به ..... اليست هذه بذور الديمقراطية ؟!

فان أبيت ألا برهانا عملياً واعتبرت هذا مجرد كلام فهاهو « بيبى الأول » من ملوك الاسرة السادسة لم ير غضاضة فى أن ينزل ألى صفوف العامة والأوساط المنحطة فيستخدم ذوى الكفايات منهم و يقلدهم معظم مناصب الدولة الهامة التى كانت من قبل وقفاً على الكهنة والأمراء. أليست هـذه هى الديمقراطية لحماً ودماً و معنى ، وان لم تكن لفظا ! ؟

وخلف هذا الملك الديمقراطى « بيبى الثانى » الذى حكم مايزيد على ٩٠ سنة وهو أطول حكم حكمه ملك واحد فى التاريخ وقرب آخر أيامه استقل حكام المقاطعات وصاروا يتنازعون فيمابينهم وعادت مصر الى الانقسام الذى انقذها منه «مينا» منذ الف سنة.

وظل الانقسام تتبعه الفوضى مخيما على مصر أيام الاسرتين السابعة والثامنة . و فى أيام الاسرتين التاسعة والعاشرة انحصر النزاع بين مدينتى هرقليوبوليس (مكانها اهناسية) ومدينه طيبة (مكانها الاقصر) وانتهى هـذا النزاع بسقوط هرقليوبوليس وانتصار طيبة .

— ٣ —

عهد الاقطاع والمكسوس

تجـــربة جـــديدة :

لما انتصر امراء طيبة على هرقليوبوليس اخضعوا جميع مقاطعات مصر لهم و وحدوا القطر من جديد .

غير أن تلك الوحدة تأسست على نظام جديد هو نظام الاقطاع .

و يتلخص ذلك النظام فى أن مصر قسمت الى عدة مقاطعات يحكم كل مقاطعة أمير يكاد يكون فرعونا في مقاطعته يملك الارض وما عليها . وكان الأمراء يرثون الحكم عن آبائهم . ولم تكن هناك رابطه تربطهم بالملك ألا دفع قدر من المال لخزينته كل عام وأمداده بالجنود أذا احتاج الى ذلك . وكان الامراء بوجه عام يشعرون بواجب الولاء للملك غير أنهم كانوا أذا استضعفوا

الملك يمتنعون عن دفع الضرائب ويحاربونه أذا أصر على أخذها ومن أجل ذلك كان الملوك يقيمون حرساً قائماً لحمايتهم وكان هذا أول عهد لمصر بالجيوش القائمة.

تحت هذا النظام خدم ملوك الاسرة الثانية عشرة ـ أشهر نجوم ذلك العصر الزاهرة — مصر خدمات جمة.

فهذا « امنمحعت الأول » يملأ جو البلاد رغدا وسكينة ويفتخر قائلا : « لا جائع فى مدتي ولا عطشان تحت سلطانى ». وهذا « اسرتسن الثالث » يغزو الشام ويخضع بلاد النوبة ويشيد القلاع لحمايتها عند نقطتى قمة وسمنة ويحفر خليج « سيزوستريس » الذى كان يصل النيل بالبحر الأحمر.

وذلك هو « امنمحعت الثالث » يرى بثاقب بصره ان الزراعة مصدر ثروة مصر الهام فيتخذ من اقليم الفيوم المنخفض خزان « موريس » تحفظ فيه المياه في اوقات الفيضان لينتفع بها وقت انخفاض النيل و يؤسس عند مدخل الخزان قصر لابيرنته العجيب.

نجــــاح وفشــــل :

لنسرح الطرف الآن فى بعض البلاد أيام الدولة الوسطى : ها هو ذا أحد الأمراء الاقطاعيين يشتغل بنحت قبره في جانب الجبل . انظر أليس قبره هذا رشيقا ؟ وكم ينفق الصناع من حذق ومهارة فى تجميله وزخرفته . وهاهوذا قصر أميرآخرعلى ضفاف النيل انظر ، الى الحدائق الغناء والى طيور الماء تأوى اليه هادئة . تعال معى نتتبع احدى بعثات التجار التى كان يبعثها امراءالإقطاع في ذلك الوقت السحيق . انظرهاهى جمهرة كبيرة من السفن . انها تبرح مياه الأمير . أن الملاحين ينشدون و يغنون والمراكب تسير بهم الى الجنوب . انظر هاهم قد وصلوا ألى جنادل أسوان . انهم يخترقون القناة التى حفرها « اسرتسن الثالث » في حجر الجرانيت ليتجنبوا الجنادل . هاهم يتوغلون فى اواسط السودان . انهم يبتاعون للأمير من بلاد النوبة وبلاد بنت (السومال وعدن) ريش النعام وسن الفيل والعطور والطيوب . هاهم يعودون وقد

وصفوا رحلاتهم فى قصص طويلة مسلية. هل ترى كيف يقرؤها الناس بشوق ويدرسها الطلبة فى المدارس ؟

ان أمثال هذه الرحلات البرية والبحرية التى كانت تتوغل فى الجنوب حتى تصل إلى المحيط الهندى (آخر حد للدنيا !) وتتوغل فى الشمال حتى تدرك بلاد فلسطين وفينيقيا ولبنان وجزائراليونان واليونان نفسها والتى كان يدونأخبارها ويصفها الربابين ومن معهم من الأدباء هى أساس الأدب المصرى القديم الذى كان يتميز به عصر الاقطاع كما كان يتميز عصر الدولة القديمة بالأبنية الضخمة كالأهرام . لقد وضعت في ذلك العهد جملة صالحة من الأناشيد والأشعار كما ألفت أول رواية تمثيلية فى العالم وهى «درامة اوز وريس» أول اله سكن مصر التىصورت فيها حياة « أوزوريس» ومماته ودفنه وبعثه والتى كانت تمثل كل عام فيشترك فى تمثيلها عدد عظيم من الناس . كذلك تقدم علم الطب والعلاج ولا تزال بعض الأدوية والمعالجات التى كان

يصفها الاطباء المصريون قديما لمرضاهم في تذاكرهم الطبية (الروشتات) كزيت الخروع والحجامة والكى تستعمل الى وقتنا هذا . وتقدمت في هذاالعهد أيضاً العلوم الرياضية والفلكية فألفت كتب فى الحساب على النظام العشرى الذى لايزال مستعملا إلى الآن كما وضعت مبادىء الهندسة والجبر واخترعت الآت بسيطة لرصد الاجرام السماوية .

وترقت الأدارة الحكومية فكان يعمل كل بضع سنين إحصاء يعتمد عليه فى جباية الضرائب كما أنشأ « امنمحعت الثالث » مقياساً للنيل عن حصن سمنة (الشلال الثانى) لينبىء بحالة الفيضان لكى تتناسب الضرائب مع مقدار الفيضان . ولقد اقيمت في هذا العصر السدود والخزانات فأخصب خزان بحيرة « موريس » الذى انشأه امنمحعت الثالث مايقرب من ٢٧ الف فدان من اقليم الفيوم وحده فكانت الحكومة منذ ٤٠٠٠ سنه تفكر فيما يشغل بال الحكومات فى وقتنا هذا .

وكان لمصر أسطول ضخم وصل الى جزائر اليونان واستولى على كريد وغيرها من الجزائر وكانت السفن المصرية تأتي من بحر ايجه فتدخل أحد فروع النيل ثم تسير الى ان تصل الى قناة «سيزوستريس» الى البحر الاحمر الى بلاد بنت الى المحيط الهندى الذى كان يعتبره المصريون آخر حد للدنيا .

ولم يهمل المصريون الصناعة في هذا العصر فحذقوا صياغة الحلى الدقيقة ونظرة واحدة الى قاعة الذهب فى المتحف المصرى تترك الانسان حائرا من جمال مايرى . أما مباني هذا العصر فكانت تمتاز بالدقة والتناسق وحسن الذوق والجمال والرشاقة على عكس مبانى الدولة القديمة التى كانت تمتاز بالضخامة والعظم .

تلك كانت الحال أيام الأسرة الثانية عشرة نجاح على طول الطريق. فاذا كنا فى أيام الأسرة الثالثة عشرة ـ ذلك الرقم المشئوم ـــ اذا بذلك النظام الهائل ينقض وأذا بنجاح عهد الأقطاع يتبدل فشلا واذا بالأمراء وحكام المقاطعات يستقلون ويغيرون على مقاطعات

جيرانهم يبتغون الوصول الى مصر بأسرها . ولم تكن مصر بدون اعداء فى ذلك الوقت فلقد كانت تتكون في الشمال الشرقى من حدودها أذ ذاك دولة جديدة وكانت حالة مصر التعسة تشجع أى دولة على غزو البلاد الأمر الذى تم بكل أسف في أواخر الاسرة ١٣ المشئومة أذ بدأ الهكسوس الاسيويون يغيرون على مصر .

ولسنا نعلم عن الهكسوس أو الملوك الرعاة اكثر من أنهم شعب سامى الأصل شجعتهم انقسامات مصر على الدخول فهبطوا الوادى المقدس عن طريق برزخ السويس واستطاعوا أن يجتاحوا الوجه البحرى و بعض أقاليم الوجه القبلى بدون عناء كبير وساعدهم على التمكن من مصر بعض الزعانف من أمراء المصريين الذين يعبدون السلطة حيثما ظهرت وكان حكم هؤلاء الأجانب اشد مايكون بغضا الى المصريين لالأنهم عاملوا المصريين بقسوة وفظاظة ولالأنهم حطموا الهياكل والمعابد

فحسب بل لأن عهدهم كان فى مصر أول حكم اجنبى عليها .

غير ان الهكسوس ابتلعتهم المدنية المصرية فلم يلبثوا بعد ان كانوا اهمجا حتى تمصروا واندمجوا في المصريين وقلدوا أنماطهم وعبدوا آلهة مصر ولكن على الرغم من ذلك لم يغفر لهم المصريون جرم فتحهم لبلادهم فكانوا يلقبونهم بالهمج والرعاة والكفرة احتقارا لهم وحطاً من شأنهم .

وقر الهسكوس فى مصر أيام الأسرات ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ زمنا اختلف المؤرخون في تقديره من قرنين الى خمسة قرون كانوا يحكمون مصر أما مباشرة من عاصمتهم افاريس (في برزخ السويس) أو بواسطة ولاة أو ملوك من المصريين يحكمون باسم الهكسوس .

وغير الهكسوس أساليبهم العتيقة فى حكم البلاد ولكن ذلك لم يغير من قلوب المصريين نحوهم .

وقرب آخر أيامهم استطاعت عدة ولايات في الوجه القبلى

أن تنفصل عن الهكسوس وكانت أهم هذه الولايات طيبة التى بدأ امراؤها أو ملوكها يشقون عصا الطاعة على الهكسوس ويجابهونهم بالعداء وما زالوا في حروب مستمرة معهم حتى تم طردهم على يد « أحمس » مؤسس الاسرة ١٨ .

حـــرب الاستقـــلال :

لم يبدأ هذه الحرب « أحمس » بل بدأها ثلاثةهم « سكنن رع الاول » ملك طيبة و « سكنن رع الثاني » و « سكنن رع الثالث »

وفى عهد هذا الاخير كان ملك الهكسوس الذى يحكم من افاريس هو « ابابى » وقامت بين هذا الملك المغتصب وبين «سكنن رع » حرب لا نعلم من تفاصيلها سوى أن البطل « سكنن رع » مات فيها . فليسجل له التاريخ مجد الدفاع عن الوطن .(١)

(١) الناظر إلى مومياء سكنن رع الثالث فى متحف القاهرة يرى آثار الجروح الفظيعة التى أصابت رأس ذلك الملك الشجاع المقدام فان جبهته قد شجت بضربة بلطة ولا يزال الشعر ملبدا بالدم حول الشج وأصابت بلطة أخرى الجمجمة فوق العين فبرز بسببها المخ . وترى فى الخد وخزة من سن سيف . وترى الألم باديا على وجه المومياء . وقد ضغط الملك بأسنانه على لسانه حتى خرقه .

ونجح «كاموز» بن «سكنن رع» فى طرد الهكسوس من الوجه القبلى حتى مدينة منف تاركا لاخيه «أحمس» مهمة اجلاء الهكسوس عن مصر تماما.

لقد كانت مهمة «أحمس» من أشق المهام. لقد كان فرضا عليه أن يطوى الامراء تحت جناحيه. لقد رأى من حسن السياسة أن يضمن الحالة في الجنوب في حرب قد تستبقيه أعواماً طوالا فى الشمال فتزوج من ابنة ملك اتيوبيا الذى أمده بجيش من جنوده الاشداء. لم يكد «أحمس» يبدأ بالزحف الى الشمال حتى كانت جماهير المتطوعين من المصريين تتدفق الى جيشه لتخلص البلاد من الاعداء. لقد اضطر «أحمس» الى ارجاع الجنود الاتيوبيين حتى لا يشارك المصريين أحد في فخر استرجاع الاستقلال. ها هو ذا الجيش يسير الى الشمال ولواء البر معقود «لاحمس بنحبب» ولواء الاسطول معقود «لاحمس بن أبانا» والقيادة العامة للجيش والاسطول لجلالة الملك «أحمس» سار الاحاميس الثلاثة حتى وصلوا عاصمة

المغتصبين — وكانت تحوطها قناة متصلة بأحد فروع النيل — وحاصروا مدينة «أفاريس» يعضدهم الرأى العام المصرى . ولم يفت فى عضدهم خيانة الخائنين ودعاة الهزيمة الذين أضطروا «أحمس» لفك الحصار والعودة الى الجنوب لاخماد تلك الثورات عدة مرات .

وأخيرا أسقط فى يد الهكسوس ووقعت «افاريس» في يد المصريين الذين عمدوا اليها فدكوها دكا واقتلعوا الاحجار من آساسها حتى لا يبقى شىء يذكرهم بذلك العصر المنحوس . وولى الهكسوس الادبار لا ليعودوا من حيث أتوا ولكن ليتحصنوا فى عدة حصون كانوا قد أقاموها على الطريق الشرقى وكان الهكسوس يستبسلون فى الدفاع عن هذه الحصون وكان «أحمس» يقتلعهم اقتلاعا من الحصن بعد الحصن حتى تم جلاؤهم عن الحدود وغابوا عن نظر أحمس فتحقق وتم الاستقلال .

ولم يقنع «احمس» — محرر مصر — بهذا بل توغل وراء

الهكسوس فى فلسطين وسوريا . وهناك رأت عيون المصريين بلاداً غير بلادهم وتفتحت لغير ماعهدوه فى مصر فدفعهم النجاح في طرد الهكسوس الى محاربة هذه البلاد وضمها الى مصر ففتح « احمس » بلاد فلسطين ووضع بذلك الحجر الأول في بناء الامبراطورية المصرية الشامخ الذى اتمه اخلافه ملوك الاسرة ١٨ .

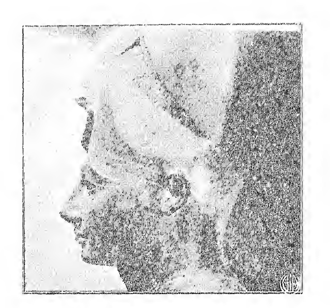
— ٤ —

امبراطورية الفراعنة

الفـــــراعنة العظـــــام :

و يعود أحمس ألى مصر ظافراً منتصراً فاذا الأمة تخرج الى استقباله وأذا المظاهر الباهرة والاحتفالات الساهرة تملأ ربوع البلاد . و يعلو شأن طيبة التى انجبت البطل أحمس و يذيع نفوذ الهها «آمون» الذى باسمه طرد الهكسوس وفتحت الاقاليم الجديدة. و يضرب « أحمس» نظام الاقطاع الفاشل الضربة القاضية فيركز كل السلطة فى يده ويجعل كل الأراضى ملكا خاصاً له وتشهد مصر أذ ذاك أقوى حكومة مركزية في تاريخها . ثم ينصت العالم وتتكلم مصر و يسجل التاريخ .

هذا هو « امنوفيس الأول » يفتح بلادسوريا و يغزو بلاد لوبية في الغرب . وهذا هو « تحتموس الاول » يعود من حرب



تمثال الامبراطور الاعظم « تحتمس الثالث » من الاسرة ١٨ الذى لقبه المؤرخ الامريكى برستد بنابليون مصر .

(عن الطبعة ١٤ من دائرة المعارف البريطانية)

النوبة حاملا على مقدمة سفينته جثه أحد الزعماء النوبيين مدلاة من رجليها و ينصرف بالاسطول ألى فينيقيا ثم يتوغل فى أعالى الفرات فيدون أخبار انتصاره على لوحة هناك .

وتلك هى الملكة « حتشبسيوت » ـ اقوى ملكات مصر ـ تكسف بحذقها ونفوذ حزب المحافظين المصريين (حرب الوراثة الشرعية) كيان اخويها تحتموس الثاني والثالث فتتزيا بزى الرجال وتخاطب بلقب صاحب الجلالة وتبعث بحملة الى بلاد بنت تعود سفنها محملة بالتوابل والعطور والنسانيس والزراف وريش النعام فتدون اخبارها على معبدها الدير البحرى .

. وينفرد « تحتموس الثالث » بالحكم فاذابالفتى الذى خبأت عبقريته حتشبسيوت يصبح امبراطور مصر الاعظم فيدوخ ملك« قادش» وأحلافه فى معركة«مجدو»ويروح و يغدو ألى أسيا سبع عشرة مرة تقع فيها اسيا تحت قدميه و يتزلف اليه ملوك آشور وبابل و الحيثيين والميتانى فيقدمون لهالخضوع و يحملو ن

اليه الجزية فيوفرون عليه مشقة الحرب وأذا بأسطوله يجتاح سواحل فينيقيا وآسيا الصغرى وقبرص وكريد و رودس وغيرها من جزائر البحر واذا بالامبراطور الاعظم وهو فى السبعين من عمره لايعرف الراحة فيقود حملة ألى بلاد النوبة و يتوغل بها في مجاهل السودان . والمراسلون الحربيون فى كل حروبه — كما تفعل ارقى الجيوش الآن — يدونون يوما بيوم و بالتفصيل حوادث الحرب والفتح .

كذلك كونت أول امبراطوريةفى الارض .

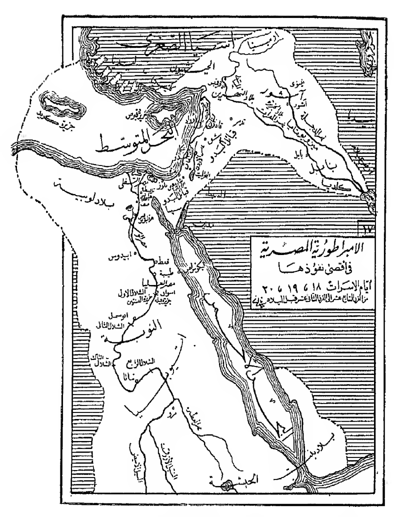
أول امبراطورية فى العـــالم :

ولقد كان تأسيس هذه الامبراطورية خلقاً جديداً لمصر اذ تغيرت الحالة من جميع النواحي وأصبحت الدولة حربية بكل معانى الـكلمة وصارت الجندية هي الطريق الوحيد لـكسب المال والشرف حتى ان أحقر حقير — حتى العبد — كان يأمل بانضمامه الى الجيش في الوصول الى أرقى مناصب الدولة .

وكان في مصر طول عهد الامبراطوريه ثلاثة أحزاب قوية: حزب الكهنة والحزب العسكرى وحزب المحافظين (أو حزب الوراثة الشرعية) وكانت هذه الاحزاب تدفع مرشحيها لا إلى البرلمان ولكن إلى العرش فحزب المحافظين كان يرى ضرورة أن يرث الأبن الشرعى أباه في العرش وكان هذا الحزب يعضد وراثه « حتشبسيوت » لأبيها فى العرش بينما كان يعضد حزب الجيش « تحتموس الثانى » وحزب الكهنة « تحتموس الثالث » لأنه قضى حياته الأولى في المعبد .

وفى عهد الامبراطورية كانت الحكومة متمركزة في يد الملك أو الامبراطور يساعده في تدبير شئون الدولة صاحب الخزائن (وزير المالية) ووزيران آخران يقيم أحدهما فى مدينة هليوبوليس والآخر في مدينة طيبة .

وكانت مهمة الوزير في طيبة منحصرة في إدارة دخل الملك وفى الاشراف على الضرائب وجزية المستعمرات والقضاء بين



الامبراطورية المصرية فى اقصى حدودها ايام الاسرات ١٨ و ١٩ و٢٠
(مصغرة عن الجزء الاول من الاطلس الجغرافى التاريخى للمؤلف والاستاذ الرشيدى)

الناس والاحتفاظ بسجلات الدولة .

وكانت المحاكم منتشرة فى أهم مدائن الدولة يحكم فيها قضاة يعينهم الوزير بأمر الملك ويستطيع المتقاضون فيها ان يستأنفوا الأحكام إلى الوزير فى طيبة الذى كان مكتبه يعتبر محكمة استئناف عليا لكل محاكم القطر . وكانت محكمة الوزير فى طيبة تكفل العدالة لكل انسان ولم يكن حتى المتآمرون على حياة الملك يعاقبون بطريقة تعسفية بل كانوا يقدمون الى المحاكمة .

وكثيراً ماكان يجوب الوزير انحاء القطر متفقداً حالة الجيش والاسطول والحصون على الحدود وحالة الرى والزراعة والغابات وشئون المعابد وأرصفة الموانى .

وكانت طريقة الحكم في عهد الامبراطورية تشبه الطرق المستعملة في عصرنا هذا فكانت البلاد المجاورة لمصر كفلسطين تخضع للحكومة المركزية . أما فى بلاد سوريا وقبرص وكريد فكان الأمراء الوطنيون يحكمون بلادهم وكان الامبراطور

يعين مع كل ملك موظفا ساميا مصريا له الأمر والكلمة العليا وعلى الأمراء الطاعة و التنفيذ وكان هؤلاء الموظفون المصريون يشرفون على جباية الضرائب تعضدهم حامية مصرية و كان أبناء الأمراء يبعثون الى مصر ليكونوا رهائن على سلوك آبائهم وليتعلموا على النظم المصرية حتى اذا ما آل اليهم الملك خدموا الامبراطورية خدمة صادقة . أما البلاد البعيدة فكانت تبعث الى مصر هدايا بانتظام ربما فاقت جزية المستعمرات الاخرى .

طيـــبة المدينة الخـــالدة :

وكانت طيبة المدينة الخالدة مركز ذلك الملك الشاسع وكان النيل يفصلها الى قسمين:طيبة الغربية وطيبة الشرقية. فأما الاولى فكانت تسمى مدينـة الاموات يكتنفهـا من الغرب واديان عظيمان هما واديا الملوك والملـكات اللذان نحت ملوك وملـكات الامبراطورية قبورهم فيهما على شكل سراديب تنحدر في باطن الجبل عشرات الامتـار وتنتهى بردهات وحُجَر يوضع فى

أقصاها وأبعدهاغورا تابوب الملك . وبين«بيبان»الملوك والملكات ونهر النيل تقع عدة معابد جنائزية كان الغرض من بنائها أن يصلى فيها على أرواح الموتى وان تقدم القرابين للآلهة لكى يسهل على الفراعنة اجتياز العالم السفلى حتى يصلوا الى ملكوت « اوزوريس » حيث يزن الاله « انوبيس » اعمالهم في الميزان ويقيد الاله « توت » نتيجة الميزان ثم يقدم الاله «حوريس» من ثقلت موازينه الى حظيرة « اوزوريس » كبير الآلهة ليدخله جنة الآخرة، وأما من خفت موازينه فتتلقفه آلهة كالوحوش الكاسرة. تلك هى طيبة الغربية مدينة الأموات .

أما طيبة الشرقية فكانت مدينة الأحياء وكانت عامرة بقصور الملوك والأمراء وغاصة بمساكن الطيبيين ومعابد الآلهة وبخاصة « آمون » اله طيبة وزوجته الألهة «موت»وابنهما الاله « خنسو » .

فلنرجع القهقرى بالخيال ألى عصر « امنوفيس الثالث »

(الاسرة ١٨) لنرى طيبة فى أزهى عصورها .

هاهوذا قصر فرعون على ضفة النيل تحيط به الاشجار الجميلة وتحفه المهابة والوقار ويملأ ساحته الحرس الاشداء . وهاهى ذى قصور الامراء والوزراء تكتنفها الحدائق الغناء وتسبح في بحيراتها الصناعية خفاف القوارب والاسماك . وهذا هو معبد الاقصر قد صفحت أراضيه بألواح الفضة وزخرفت نقوش جدرانه بالذهب وأكرم الاحجار، وا كتظت تحت وهج الشمس فى ساحته الخارجية الآف الخلق من رجال ونساء يقدمون القرابين على مذبح الاله . وهذا كاهن يلبس على كتفه جلد النمر يخترق صفوف الامراء والعظماء من اقصى ساحات المعبد المظلمة حيث قدس الاقداس ليهيب بالناس أن انصتوا لتروا معجزة الاله .

وهذا طريق الكباش الرابضة يؤدى الى معابد الكرنك حيث البحيرة المقدسة وحيث يضل السائر فى ساحاتها الشاسعة

بين آجام الاعمدة الزاهية وشوامخ المسلات .

وهذا رهط من الريفيات يردن المدينة: تلك تحمل على رأسها جرة فيها نبيذ وهذه تتأبط حزمة من غزل الكتان وتلك تسوق وقيرا من الغنم وهذه تبحث عن حانوت الكحال وتلك ترتاد ناحية النجاد . وبينا المدينة في حركة أذا فجأة يهرول جماعة من جند القصر الملكى من ناحية المعبد يهتفون بالناس ان افسحوا الطريق، ثم تمر أميرة من بنات فرعون يحملها عبيدها السود على محفة غاية فى الرواء فيحييها الناس برفع ايديهم و بالانحناء .

وفي إحدى ميادين العاصمة ترى قبيلا من رجال و نساء وأطفال يلبسون ثياباً مختلفة الازياء ويتكلمون بعدة لغات وقد وقف فى وسطهم فيّال تقفز على ظهر فيله الضخم القردة والنسانيس فيتفكه بمرآها الناس .

ثم ترى حشدا من الناس يزدحمون بالمناكب عند أرصفة طيبة ليروا السفن الآتية من الجنوب والشمال تحمل الجزية لفرعون

واسرى المستعمرات ، فيسر الناس لرؤية الغنى يتدفق الى بلادهم والاسرى مكبلين بالاغلال والاصفاد يساقون الى الخدمة في الحقول وأقامة المعابد «لآمون رع» مصدر الخيرات . وترى الرسامين يصورون أولئك الاسرى التعساء صورا كاريكاتوريه على قطع من الخشب «كالكارت بوستال» يبتاعها الناس ويتفكهون بالضحك عليها .

ذلك كان مرآى الحياة في طيبة منذ ثلاثة آلاف وثلاثمائة عام عندما كان الامبراطور امنوفيس الثالث أعظم رجل في العالم.

فلســـفة تضحى أمبراطورية :

فاذا كنا في أيام «امنوفيس الرابع» ابن «امنوفيس الثالث» اذا برجة هائلة تزلزل عقائد الناس وتهزدعائم الامبراطورية المتينة .

ولم تكن امبراطورية كامبراطورية «امنوفيس الثالث» تخلو من أعداء يعيشون في كنفها والدول فى عنفوانها تحتاج الى اليقظة

أكثر من أى وقت آخر، وقدكان يتاخم الامبراطورية من جميع النواحى أعداء في الباطن أصدقاء فى الظاهر يريدون لها الوقيعة ويتربصون بها الدوائر فدولتا الميتانى والحيثيين كانتا تتاخمان الامبراطورية من الشمال وقبائل البدو الخبيرى من ناحية فلسطين واللوبيون من الغرب والاتيوبيون من الجنوب. ولم يكد « امنوفيس الرابع » يتولى العرش حتى أثار حربا عوانا على الآلهة وأخذ يدعو الى عبادة الهه الجديد « آتون» واذا به يغير إسمه من امنوفيس الذى يحوى كلمة آمون الى « اخناتون » ومعناها « روح آتون » ثم يأمر فتغلق معابد آمون وتضطهد كهنته وتمحى لفظة الالهة بصيغة الجمع من المعابد ويحمل الناس على عبادة « آتون » الأله الخفى الواحد الصمد الذى لايلمس والذى لا شكل له والموجود فى كل مكان والمحرك لتلك القوة الهائلة المستقرة فى الشمس التى تنبت الزرع وتضىء العالم والرفيق الرحيم والذى يمنح الخيرات ويكره الحروب ويسر لمساعدة الناس.

وأغضب كهنة آمون ذوو النفوذ العريض والمال العديد لدعوة التوحيد الجديدة فأثاروا الشعب على « اخناتون » . و يرى « اخناتون » ان طيبة وهى ملأى بمعابد « آمون » لا تصلح لدعايته الجديدة فيبنى له مدينة جديدة عند تل العمارنه الحالى تسمى « اخيتاتون » (ومعناها افق آتون ويتنقل اليها ملكه ثم يملأها بالمعابد والقصور لإلهه الجديد ويحتم على الرسامين والمثالين ان تكون صورهم وتماثيلهم طبق الأصل من الطبيعة لا تجميل فيها ولا تزويق .

حقاً لقد كان « اخناتون » أول فيلسوف فى العالم دعا الى الحق والهدى . وكانت صيحته أول صيحة بالوحدانية في وقت كانت الوثنية فيه في حصنها الحصين . ولكن العالم اذ ذاك لم يكن مستعدا لأجابة مثل هذه الدعوة وجاء نبي الفراعنة قبل أوانه بعشرات القرون .

وأدرك أعداء مصر أن فرعون قد انقلب قديساً نبيا فأغاروا على أملاك الامبراطورية فى الشمال ويسجل التاريخ أخلاص

الموظفين المصريين في هذه الناحية فقد بحت أصواتهم من طلب النجدة وترقب الأوامر من طيبة ولكن „ اخناتون ،، لم يكترث لعرض الدنيا وركز جهوده وعبقريته لخدمة دينه الجديد. وبلغ السيل الزبا فامتنعت المستعمرات عن دفع الجزية ولكن „ اخناتون ،، لم يتحرك.

وأخيرا مات «اخناتون» تاركا وراءه ظلا ضعيفا لامبراطورية كانت بالأمس عظيمة وخزانة خاوية ولخلفه من بعده كهنة ثائرين يرغبون في الانتقام وجيشا غاضبا وشعبا حانقا .

ولم ينجب «اخناتون» ذكورا فتولى من بعده «سكارع» زوج ابنته ولم يكن حكمه مهماً ثم تلاه « توت عنخ آتون » زوج ابنته الأخرى فكان في مبدىء حكمه مخلصا لآتون ثم لم يلبث أن طواه الكهنة فاذا به يبرح مع بلاطه « اخيتاتون» ثم يعود الى طيبة فيصدر أمراً بأعادة عبادة آمون ثم يغير اسمه من « توت عنخ آتون » الى «توت عنخ آمون» و يأخذ في اصلاح معابد «آمون» التى خربها حموه



الملك « اخناتون » الملقب بنبي الفراعنة وزوجته الملكة « نفرتتي » .

(عن نقش فى جدار تل العمارنة)

ثم يملؤها بتماثيل الآلهة الذهبية ثم يبالغ في مرضاة كهنة آمون فيجزل لهم العطايا و يعيد النظام القديم بحذافيره .

وهكذا يتم فشل « اخناتون » وبفكرة فلسفية سامية تضيع أولى امبراطوريات العالم .

مـــد وجـــزر

ثم تسقط الأسرة الثامنة عشرة بعد وفاة « توت عنخ آمون » بقليل و يؤسس «حرمحاب» الأسرة التاسعة عشرة واذا بسيتي الأول يحاول أن يسترد امبراطورية «تحتموس الثالث» فلا ينجح الا في استرداد فلسطين لان الحيثيين من سكان آسيا الصغرى الذين بدأوا الغارة على المستعمرات المصرية أيام الفيلسوف « اخناتون » كانت قد رسخت قد مهم فى سوريا .

و يأتى دور « رمسيس الثاني» — أشهر فراعنة مصر — واذا به يحاول أن يسترد من جديد امبراطورية «تحتموس الثالث» فيصيب القصد ولكن يخطؤه التوفيق ويرضى بعد حروب عدة و بعد

انتصاره على الحيثيين وحلفائهم فى معركة « قادش » التى أظهر فيها شجاعة نادرة خلدت اسمه في سجل الشجعان فى العالم - أن يقنع من انتصاراته العديدة بمعاهدة هجومية دفاعية بينه وبين ملك الحيثيين يلقب فيها بملك مصر الأكبر بينما حليفه «ختاسار» يلقب بأمير الحيثيين. ولكن المعاهدة لا ترد لمصر الافلسطين. ثم يتزوج « رمسيس » من ابنة ملك الحيثيين ولا تروى الحروب غلته فيطفيء غروره بأقامة التماثيل والمعابد ينقش على جدرانها قصائد شاعره «بنتاءور» في تمجيده ووصف معركة «قادش» أهم معارك رمسيس. ويستبطيء النحاتين والمثالين في صنع تماثيله الهائلة العديدة فيضحون الفن في سبيل الكثرة ولا يكتفى بهذا، فيمحون أسماء أسلافه من على تماثيلهم ومعابدهم ويضعون بدلها اسم «رمسيس». الا تتفق معى على أن رمسيس كان أعظم غشاش فى التاريخ!؟

ثم يموت « رمسيس » وقد نيف عمره على قرن تاركا وراءه عدة زوجات و ١١١ ولداً و ٥١ بنتا لابنه العجوز « منفتاح ».

وتثور فلسطين في عهد «منفتاح» فيخضعها و يعود ليخضع من أغاروا على الدلتا من اللوبيين وسكان جزائر البحر الأبيض المتوسط وربما كان « منفتاح » هذا هو فرعون موسى الذى خرج في عهده بنو اسرائيل من مصر.

ويعود اللوبيون الى الغارة على مصر مرة ثانية فيهزمهم « رمسيس الثالث » من الأسرة العشرين .

ويقوى نفوذ الكهنة فيتخذون من الرعامسة بقية ملوك الأسرة العشرين ألاعيب يفعلون ما يؤمرون .

ويقفز « حرحور » رئيس الكهنة الى عرش مصر فيكوّن أسرة من الكهنة هى الأسرة الحادية والعشرون تفقد مصر فى عهدها طورسينا وفلسطين .

ويشاء القدر الساخر أن يجلس على عرش مصر « شيشنق » الأول ملك اللوبيين فيتخذ من مدينة بوبسطة (تل بسطة عند الزقازيق) عاصمة للاسرة الثانيةوالعشرين .

وتتحرك دماء الفراعنة في « بعنخى » فيخرج من بلاد النوبة المتمصرة منذ مئات السنين فيستولى على منف ويكون كهنةآمون الأثرياء بسلطانه الأسرة الثالثة والعشرين .

ويستقل بالوجه البحرى أميرسايس (صاالحجر) الملك « بخوريس » فيؤسس الأسرة الرابعة والعشرين بينما يظل الوجه القبلى تحت حكم النوبيين المصريين .

وتتطلع من أقصى الشرق عيون الأشوريين الى مصرفيتهمون المصريين بمساعدة أهل الشام الثائرين فيستولى على الدلتا «اسرحدون» ملك الاشوريين ويؤسس الأسرة الخامسة والعشرين. ويستجمع الملك « طهراقه » في الجنوب قوته ويطرد الاشوريين فيعودون بعد حين ويدمر ملكهم « اشوربانيبال » طيبة الخالدة مدينة آمون .

وتظل الحرب سجالا بين النوبيين والاشوريين كل يريد الاحتفاظ بمصر فيغتنم الفرصة أمراء الدلتا المصريون ويقومون

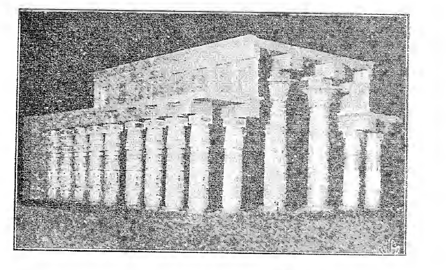
بمساعدة المرتزقة من جنود الأغريق فيطردون هؤلاء الى الشمال واولئك ألى الجنوب ويستقلون بمصر مكونين الأسرة السادسة والعشرين .

ويعيد فراعنة هذه الأسرة العظام ابسماتيك ونيخاو وأبريس ألى مصر استقلالها المسلوب وزهاء مجدها القديم :

فيجمع « ابسماتيك » للدفاع عن استقلال البلاد جيشاً من مرتزقة الاغريق .

ويقوى « نيخاو » الجيش والأسطول فيفتح بهما فلسطين وسوريا ويتوغل في العراق ثم يوصل البحرين الابيض بالأحمر عن طريق النيل ويبعث أول بعثة استكشافية في العالم فتطوف حول أفريقية وتتم رحلتها فى ثلاث سنين.

ويفتح « أُبريس » سواحل فينيقيا بأسطوله الضخم وتملأ صفحة مصر بمعابد ضخمة كمعابد العهد القديم . ويشتد ميله الى الأجانب وبخاصة الاغريق فيثور عليه المصريون ويولون مكانه



بهو الاعمدة فى عصر زهائه فى معبد آمون الكبير بالكرنك .

(عن عجائب الماضى للاستاذ هامرتن)

قائد جيشه « أحمس » أو « أماسيس » .

و يتبع « أحمس الثاني » سياسة « أبريس » حتى أنه يقطع الاغريق أرضاً في غرب الدلتا يؤسسون عليها مدينة نقراطيس .

ثم يرى « أحمس الثانى » من وراء الأفق بزوغ نجم الفرس فيتحد مع البابليين والليديين ليقيم منهم سدا يحمى استقلال مصر ويخونه التقدير فيكتسح الفرس البلاد في عهد خلفه ويدخل مصر الطاغية « قمبيز » محطما مخربا ويكون لأخلافه الأسرة السابعة والعشرين .

ويثور المصريون على الفرس عدة مرات فيغلبون و يغابون ويسجل التاريخ اسم الامير المصرى « أناروس » الذى ثار بمساعدة الاغريق على الحكم الفارسى فانتصر أولا ثم صلب اخيرا واسم الأمير المصرى « امرتوس » الذى يجدد الثورة ويستطيع أن يعلن استقلال البلاد فيزورها المؤرخ اليونانى « هيرودوت » فى ذلك العهد المستقل ويكتب تاريخها المجيد .

و يعود الفرس فيهزمون المصريين . ثم تقوم حماسة الشعب تحت قيادة «امرتوس» آخر فيطرد الفرس ويؤسس الاسرة الثامنة والعشرين .

وتتمتع مصر بعهد استقلال فى ظل هذه الاسرة والأسرة التى تلتها وهى الاسرة التاسعة والعشرون ويحسن حالها وتستعيد شيئاً من رخائها .

فاذا كانت أيام الاسرة الثلاثين عاد الفرس مرة أخرى لفتح مصر فيستبسل المصريون في الدفاع عن وطنهم فيهزمون الفرس ويردونهم على أعقابهم خاسرين .

ويملأ ملوك الاسرة الثلاثين جو البلاد خيرا ورغداً وترقى الصناعات وتتقدم العلوم ولكن هذا الرخاء لايدوم طويلا أذ يعود الفرس ويهجمون على البلاد في عهد الملك « نقطنبو الثانى» آخر ملوك الاسرة الثلاثين فيقابلهم بجيش من المرتزقة الأغريق الذين يخونون ويمكنون الفرس من المصريين.

و يقاسى المصريون الآلام بسبب الاعتماد على غيرهم في الدفاع عن استقلالهم ، ويحصدون ثمرة هذا الاهمال المشين.

و يقر الفرس بمصر زمناً عابثين ظالمين حتى يصرعهم «الاسكندر المقدوني» فيطردهم من مصر.

— ٥ —

الاسكندر والبطالسة والرومان

مصر الســـــاحـــــرة:

وهناك من أقليم مقدونيا في شمال بلاد اليونان يخرج «الاسكندر بن فيليب» فيكتسح الفرس في اسيا الصغرى وفي سوريا وفينيقيا ثم يهبط الى مصر فيطرد الفرس منها ويلتفت فاذا دولة عظيمة وأذا آثار رهيبة وأذا دين رائع له كهنة كالسحرة الماهرين فيسحر لب الاسكندر ويلتمس ـ وهو الفاتح لمصر ـ الرضى من الكهنة فلا يمتنعون ويمنحونه لقب فرعون وولد آمون . ويزور واحة سيوة فيقدم أغلى القرابين للأله آمون ويبشره آمون بفتح العالمين . ويزحف الاسكندر من سيوة الى البحر فيؤسس الاسكندرية لتكون حاضرة ملكه العظيم . ويدرك المصريون أيمانه بآلهتهم فيقدمون له الطاعة راغبين لامكرهين

ويخرج الفتى المقدونى من مصر وهو فرعون مصرى صميم ليحقق نبؤة الاله آمون بأن ابنه الاسكندر سيفتح الشرق القريب والبعـــيد .

البطـــالســـة المصريون :

وتتحقق نبؤة آمون فينتقل الاسكندر من نصر الى نصر ويثل العروش بعد العروش ويزيد أن يعود الى الاسكندرية ليتخذها عاصمـة امبراطوريته العظيمة ولـكن القـدر يخونه فيموت فى سن الثالثة والثلاثين فى مدينة بابل .

ويترسم خلفاؤه خطواته ومراميه فينقلون جثته ألى الاسكندرية ويحكم مصر بالنيابة عن أخى الاسكندر وولده القائد «بطليموس» ثم يستضعفهما فيستقل بالأمر ويؤسس أسرة البطالسة التى تحمل القاب الفراعنة وأسماء المصريين .

هذا «بطليموس الاول» ينشر العلم في أرجاء مصر ويؤسس المتحف ومكتبة الاسكندرية ويحشد فيها جيشاً من النساخ

يكتبون و يبيعون آلاف المجلدات .

وهذا ابنه « بطليموس الثانى» يشيد منـــارة الاسكندرية (شعار سلسلة الثقافة هذه) التى كانت تعتبر احدى عجائب الدنيا السبع والتى كلفت خزانة مصر مائتى الف جنيه . ثم يزيد في مكتبة الاسكندرية فتصل مجلداتها في ذلك العهد السحيق الى نصف مليون وتنقلب المكتبة ألى معهد علمى عال يتخرج فيه جهابذة العلماء الذين نقف على أكتافهم الى الآن كاقليدس صاحب الهندسة وابراتوسثينيس الذى قاس حجم الأرض وهيباركس الذى وضع أول خريطة للسماء وهيرو الذى اخترع أول آلة بخارية وارشيميدس الذى جاء من بلاد اليونان ليدرس في مكتبة مصر . ويأمر «بطليموس الثانى» المؤرخ المصرى «مانيثون» فيضع تاريخ الفراعنة ويقسم عصوره الى الأسرات الثلاثين .

ثم يلى «بطليموس الثالث» فيقود الجيش الى بلاد سوريا ثم يتوغل فى بلاد الفرس فيفتح معظمها و يعيد الى مصر تماثيل الآلهة

والاسلاب التى اغتصبها الطاغية قمبيز وظلت فى بلاد الفرس ثلاثة قرون . أليس البطالسة فراعنة مصريين ؟ !

ثم تتوالى سلسلة من البطالسة أشهرهم « بطليموس الخامس» الذى أصدر أمراً نقش بالكتابتين المصريتين الهيروغليفية والديموطيقيةو بالكتابة اليونانيةوعملت منه عدة صور على حجارة نصبت فى المعابد الهامة أشهرها الآن مفتاح اللغة المصرية القديمة المعروف بحجر رشيد .

فاذا كانت أيام «بطليموس الثالث عشر » إذا به يترك الملك لولديه بطليموس ١٤، ١٥ واختهما« كليوبطرة» الشهيرةفي التاريخ فيحكم الأول بالاشتراك مع اخته حينا ولكنه يطردها . و يأتى «يوليوس قيصر» الى مصر ليستفيد لروما الناهضة من النزاع بين الجالسين على العرش فاذا به يرى «بطليموس ١٤» مطمئنا في قصره و « كليو بطرة»تقود جيشاً من أنصارها إلى الأسكندرية لتستعيد نصيبها في إدارة المملكة . و تدبر « كليوبطرة» حيلة فتظفر بمقابلة

القائد الرومانى . واذا «بطليموس١٤» يقتل بعدذلك في المعركة . وأذا بكليوبطرة تتزوج من قيصر وفق الشريعة المصرية فيعتبر قيصر بذلك فرعوناً لمصر وينجب الاثنان قيصريون أو بطليموس ١٦ ويعود قيصر الى روما تتبعه كليوبطرة وطفلها و تظل هناك حتى يقتل قيصر . ثم تعود الى مصر فتقتل أخاها بطليموس ١٥ . ثم تتفق كليوبطرة مع انطونيو الذى تتزوجه فيما بعد و تنجب منه ثلاثة أطفال . ثم يتفقان على ان يحكما العالم الروماني بالنيابة عن قيصريون بن كليوبطرة من قيصر ولكن اكتافيوس يهزمهما في موقعة اكتيوم فتنتحر بعد بضعة أسابيع خشية أن تقع أسيرة في أيدى الرومان .

مصر تنهـــزم ولاتخضع :

ويدخل «اكتافيوس» مصر فيعمد الى قتل قيصريون ليقضى على فكرة وراثة الامبراطورية الرومانية . وينهزم المصريون أمام جنود اكتافيوس . ولكنهم لايخضعون . ويغطون عار

الهزيمة بأن يعتبروا اكتافيوس فرعونا جديداً لهم على اعتبار أنه وريث « يوليوس قيصر » الذى كان فرعونهم الشرعى بزواجه من كليوباطرة .

ويستمر المصريون يعتبرون الامبراطور الرومانى فرعونا ويشايعهم الرومان في رأيهم فيتوج أباطرة الرومان على انهم مندوبون عن فراعنة مصر فيمنحهم المصريون الاسماء والالقاب المصرية المعتادة .

ولا تؤثر الحضارة الرومانية ـ على شهرتها وذيوعها ـ فى مدنية المصريين الخالدة فيواصل المصريون انماطهم المألوفة ويشيدون معابد الآلهة على الطراز المصرى الفرعوني . ويظل الشعب باسرة على عاداته وأخلاقه القديمة كأن لم يحدث حدث .

ثم يظهر السيد المسيح في فلسطين إحدى ولايات الامبراطورية وتنتشر تعاليمه فتكتسح أمامها الوثنية وتتنصر مصر كما تنصر سائر الامبراطورية الرومانية .

ويسلك الدين المسيحى سبيله في أرض الفراعنة وتظل مصر ردها من الزمن مسرحا للاضطهادات الدينية فيفتك «دقلديانوس» بالمصريين المسيحيين وتعرف مذابحه «بعصر الشهداء» لكثرة ضحاياها .

ويعلن «ثيودسيوس» ان المسيحية هى دين الدولة الرسمى. ثم تنقسم الدولة الى قسمين شرقى وغربى وتتبع مصر القسطنطينية عاصمة القسم الشرقى وهو الدولة البيزنطية . ويقاسى المصريون عذاب الاضطهادات والظلم لمخالفتهم مذهب الكنيسة الملكية بالقسطنطينية ويأبون الا أن يكون لهم مذهب خاص هو مذهب اليعاقبة ، ولم يكن هذا الا أثراً من آثار احتفاظهم بشخصيتهم الفرعونية فيضطهدهم الروم ويثقلونهم بالضرائب ويثور المصريون كلما أرادت القوة اكراههم على تغيير عقيدتهم فيُهزمون ولا يخضعون .

ويفتح « كسرى الثاني »ملك الفرس مصر فيظل عشر سنين

و يعود الرومان ليبقوا في مصر عشر سنين أخرى حتى يطردهم الى الأبد «عمرو بن العاص» قائد الخليفة «عمر» وتبدأ مصر صحيفة جديدة من حياتها ثم يسدل الستار على تاريخها القديم . و يبتدىء فصل جديد على مسرح التاريخ المصرى يلعبه ممثلون آخرون .



قائمة

بأسماء بعض الكتب الهامة في الموضوع

(١) الحضارة القديمة تاليف المرحوم الاستاذ أحمد باشا كمال .

(٢) تاريخ قدماء المصريين للعلامة برستد ترجمة الدكتور حسن كمال .

(٣) دليل المتحف المصرى تأليف أمناء المتحف .

(٤) ديانة قدماء المصريين للعلامة استندورف ترجمة الاستاذ سليم حسن .

(٥) التاريخ القديم فى الشرق والغرب تأليف الاستاذ محمد مبروك نافع . (تحت الطبع)

(٦) الأطلس الجغرافى التاريخى تاليف الاستاذين زكى الرشيدى ومحمد مبروك نافع (الجزء الأول)

(7) A History of the Pharaohs. 3 vols. by Arthur Weigall.

(8) A History of Egypt. 8 vols. by Wallis Budge.

(9) A History of Egypt. 3 vols. by Flinders Petrie.

(10) Historian's History of the World (Vol. I)


Bibliotheca Alexandrina
0428750